العناصر الفكرية والفنية
فى رسالة الغفران للمعرى

د. جابـر قميحـة

كانت رسالة الغفران ــ ومازالت ــ معرضا واسعا رحيبا للدراسة والبحث ، وكم أثارت وتثير جدلا طويلا فى أدب المعرى ومنحاه الفكرى وعلائقه الاجتماعية والانسانية ، بل أثارت هذه الرسالة أقوالا كثيرة متضاربة فى عقيدة الرجل ودينه •

وهذه الصفحات ليست « دراسة » عن رسالة الغفران • بقدر ما هى بيان موجز لأهم جانبين من جوانب الرسالة :

الجانب الاول : هو الجانب الموضوعى والفكرى والذى قد نخلص منه الى التعرف على طوابع المعرى العقدية والتدينية •

الجانب الثانى : هو الجانب الفنى الذى يغطى ما فى هذا العمل من عناصر قصصية أو درامية من خيال وأحداث وشخصيات ومنهجه فى الاداء التعبيرى ••• الخ •

وحتى نكون على بينة من كل أولئك نرى من اللازم أن نتعـرف على مسألة مبدئية مهمة وهى « الدافع » الذى حدا بأبى العلاء الى كتابة رسالته •

---

* مدرس بقسـم اللغـة العربية بكلية الألسـن ــ جامعـة عين شمس •

الدافع الى انشاء رسالة الغفران :

كتب على بن منصور (١) رسالة الى أبى العلاء المعرى يشكو فيها أموره ، ويبث شعوره (أحزانه) وما لقيه فى سفره من أقيوام يدعـون العلم والأدب ، والأدب أدب النفس لا أدب الدرس ، وهم أصفار منها جميعا ، ولهم تصحيفات كنت — كما يقول : « اذا رددتها عليهم نسبوا التصحيف الى وصاروا البا على » (٢) •

ولكن الرسالة وان كانت روح الشكوى والتبرم واضـحة فيها — كانت معرضا واسعا لموضوعات شتى من أهمها : —

١ — أخبار كثير من الادباء والشعراء ، وخاصة الملاحدة والزنادقة منهم ، ومن علقت بهم شبهة الالحاد والزندقة ، ومن هؤلاء : أحمد ابن يحيى الراوندى ، وصالح بن عبد القدوس ، وبشار بن برد ، والوليد ابن يزيد ، والحلاج •

وهو يأتى بهذه الأخبار موجزة ، ويأتى ببعضها على سبيل الاشارة والالمـاع •

٢ — أخبار شخصية وأحاديث عن النفس تصور بعض مراحل

---

(١) هو على بن منصور (ابن القارح) الملقب بدوخلة • ويكنى (أبا الحسن) : أديب شاعر ، خدم أبا على الفارسى بالشـام وآل المغربى بمصر ، واتصل بأبى القاسم المغربى ومدحه ، ثم تنكر له فى محنته ، وله فيه هجاء كثير • عاش فى النصف الثانى من القرن الرابع والنصف الاول من الخامس •

(٢) رسالة ابن القارح ص ٢٧ • من تحقيق بنت الشاطىء لرسالة الغفران الطبعة السادسة ١٩٧٧ • دار المعارف • القاهرة •

حياته كقوله « كنت أدرس على أبى عبد الله بن خالويه — رحمه الله — وأختلف الى أبى الحسن المغربى . ولما مات ابن خالوية سافرت الى بغداد ، وكنت أختلف الى علماء بغداد ... » (١)

٣ — نقد بعض الشعراء وتسجيل مآخذه عليهم . فابن القارح يعرض — مثلا — للمتنبى ، ولا يعجبه تصغير كلمة « الاهل » فى قوله :

أذم الى هذا الزمان أهيله

« لأن المتنبى صغرهم تصغير تحقير غير تكبير ، وتقليل غير تكثير ، فنفث مصدورا ، وأظهر ضميرا مستورا ، وهو سائغ فى مجاز الشعر ، وقائله غير ممنوع من النظم والنثر ، ولكنه وضعه غير موضعه ، وخاطب به غير مستحقه،وما يستحق زمان ساعده بلقاء سيف الدولة أن يطلق على أهله الذم ... » (٢)

ولكنه يتعاطف مع ابن الرومى ، ويدعو الله أن يقبل توبته مما اعتقده فى مرض موته من ذبح نفسه ، مستشهدا بحديث النبى — صلى الله عليه وسلم — فى تخليد المنتحر فى النار (٣)

٤ — مدحه أبا العلاء والثناء عليه الى حد الاسراف غير المستساغ بأسلوب مسجوع متكلف كقوله ان أبا العلاء « قد شاع فضله فى جميع البشر ، وصار غرة على جبهة الشمس والقمر ... » (٤)

ولكن أخبار الزنادقة ومن علقت بهم شبهة الخروج على الدين تستغرق أغلب رسالة ابن القارح ، ويطلب من أبى العلاء فى النهاية أن يشرفه بالجواب عنها .

---

(١) السابق ٥٦ . (٢) السابق ٢٨
(٣) أنظر السابق ٤١ . (٤) السابق ٦٢

وواضـــح من عرض أهم المســـائل والموضوعات التى تناولها ابن القارح فى رسالته أنه لم يطرح أسئلة مباشرة محددة عما عرضه وأثاره من مسائل ، ولكنه عرض ما عرض دون أن يذيل كل مسألة أو موضـــوع من موضوعاته الكثيرة بالسؤال الذى يتعلق بكل مسألة على حدة • وكانت « رسالة الغفران » هى الجواب الذى انتظره ابن القارح • وهنا نلاحظ حقيقتين :

الأولى : أن رسالة ابن القارح تمثل « عملا » متكاملا لا نقص فيه حتى على افتراض عدم اجابة أبى العـــلاء عما أثارته الرسالة من مسائل وموضوعات متعددة متشعبة •

الثانية : أن رسالة الغفران — فى قسمها الثانى — تعتبر تمديدا استطراديا للاخبار والحقائق التى ذكرها ابن القارح فى رسالته ، حتى لتصلح رسالة ابن القارح أن تكون « متنا » لرسالة الغفران فى قسمها الثانى • ولا أغلو اذا قلت اننا لو ضممنا كلام الرجلين — ابن القارح وأبى العلاء فى كل مســـألة على حدة لتحقق التكامل والاستيفاء للموضوع الواحد ، ولمـــا استطاع القارىء أن يلمس اختلافا أو تنافرا بين نقاط متكاملة ، وأسلوبين متشابهين الى حد بعيد ، وان كان أبو العلاء أوسع أفقا وامتدادا وقدرة على تمثل المواقف والتمثيل لها برصـــيد ضخم من اللغة والتاريخ والشعر • ونجتزىء بمثال واحد يؤكد ما ذهبنا اليه :

جاء فى رسالة ابن القارح (١)

« قال الحسن بن رجاء الكاتب : جاءنى أبو تمام الى خراســـان ، فبلغنى أنه لا يصلى ، فوكلت به من لازمه أياما فلم يره صلى يوما واحدا فعاقبته ، فقـــال : يا مولاى : قطعت الى حضرتك من بغـــداد فاحتملت المشقة ، وبعد الشقة ، ولم أره يثقل على ، فلو كنت أعلم أن الصـــلاة

---

(١) ص ٤١

تنفعنى ، وتركها يضرنى ما تركتها • فأردت قتله فخشيت أن يحمل على غير هذا » •

وجاء فى القسم الثانى من رسالة الغفران رد أبى العلاء أو تعليقه على هذه المسألة (١) :

« وأما أبو تمام ، فما أمسك من الدين بزمام،والحكاية عن ابن رجاء مشهورة ، والمهجة بعيبها مبهورة ، فان قذف فى النار حبيب (٢) فما تغنى المدح ولا التشبيب ، ولو أن القصائد لها علم ، وتأسف لما يشكو له الخلم (٣) لاقامت عليه المدودتان (٤) اللتان فى أول ديوانه مأتما ••• وكأنى بهما لو قضى ذلك لاجتمعت اليهما « الممدودات » (٥) كما تجتمع نساء معدودات،فيجئن من كل أوب ، ويتواعدن المحفل على ثوب ••• »

وهكذا كان نهج أبى العلاء فى القسم الثانى من رسالة الغفران — وهو يستغرق قرابة نصف الرسالة — ، وفيه ينطلق أبو العلاء من مسائل ابن القارح مسألة مسألة ، بعقلية موسوعية قادرة ، مجندا كل معارفه الادبية والتاريخية والدينية والفلسفية واللغوية فى استيفاء القول فى المسائل التى أثارها وعرضها ابن القارح فى رسالته على سبيل الايجاز غالبا ، وعلى سبيل الالماع أحيانا •

أما القسم الاول من الرسالة فهو يمثل الجانب القصصى أو الخيالى فى الرسالة « ومن ثم كان هذا القسم ذاقيمة خاصة . على أن أهمية

---

(١) رسالة الغفران ٤٨٣
(٢) حبيب بن أوس الطائى هو أبو تمام •
(٣) الخلم بكس فسكون هو الخل والصديق •
(٤) قصيدتان لأبى تمام فى المديح • (٥) سبع قصائد لأبى تمام فى غير المدح •

الرسالة انما ترجع الى القسم الاول منها ، اذ قرنها الباحثـــون بسببه الى الكوميديا الالهية لدانتى » (١)

لذلك سيكون معظم حديثنا مقصورا على هذا القسم الاول الذى جاء عنوان الرسالة دليلا واشارة اليه •

موضـــوع رســـالة الغفـــران :

يتلخص موضوع الرسالة فى أن أبا العلاء تخيل أن الشيخ على بن منصور الحلبى (ابن القارح) قد صعد الى السماء ، ورأى الجنة بمـــا فيها من أشجار وأنهار وحور عين وكئوس وأباريق وخمر وعسل ونعيم • كما رأى الجحيم بمافيه من نار وعذاب • وفى هذا العالم الاخر المغيب يلتقى ابن القارح بعشرات من الشعراء والادباء والعلماء وتدور بينـــه وبينهم محاورات فنية ولغوية ونحوية وفلسفية ينطلق أبو العلاء فيها لابراز قدراته اللغوية والشعرية وعلمه الفائق بالغريب •

ويعجب ابن القارح لدخول كثير من الجاهلين الجنة على كفرهم وبعدهم عن الاسلام ، فيأتيه الجواب بأن ذلك لعمل طيب أتاه صاحبه ، أو بيت من الشعر طيب المعنى دينى المضمون ، ومن ثم أدركته رحمـــة الله « فغفر » له شركه ومآثمه وأوزاره • وهذا هـــو السر فى تسمية الرسالة « برسالة الغفران » •

وعلى سبيل التمثيل : يلتقى ابن القارح بعبيد بن الابرص ــ الشاعر الجاهلى ــ فى الجنة فيقول : السلام عليك يا أخا بنى أسد ، فيقول : وعليك السلام ــ وأهل الجنة أذكياء لا يخالطهم الاغبياء ــ لعلك تريد أن تسألنى بم غفر لى ؟ » فيقول « أجل ، وان فى ذلك لعجبا !! أألغيت حكما

---

(١) الفن ومذاهبه فى النثر العربى للدكتور شوقى ضيف ص ٢٧٦
دار المعارف • القاهرة ــ الطبعة التاسعة ١٩٨٠

المغفرة موجبا ، ولم يكن عن الرحمة محجبا ؟ » فيقول عبيد « أخبرك أنى دخلت الهاوية ، وكنت قلت فى أيام الحياة :

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب

وسار هذا البيت فى آفاق البلاد ، فلم يزل ينشد ، ويخف عنى العذاب ، حتى أطلقت من القيود والأصفاد ، ثم كرر الى أن شملتنى الرحمة ببركة ذلك البيت ، وان ربنا لغفور رحيم (١) •

فالعفو والغفران الالهى للعصاة والمذنبين كان هو النغمة التى تسرى فى أعطاف الرسالة • ويرى بعض الباحثين المحدثين (٢) « أن هدف أبى العلاء من ذلك كان مقاومة الفكرة السائدة لدى علماء الكلام فى عصره عن تضييق فكرة الدين بفكرة أخرى عن رحمة الله التى وسعت كل شىء » •

وهذا يجرنا الى الحديث فى مسألة شغلت — ومازالت تشغل الباحثين فى أدب أبى العلاء وشعره ألا وهى عقيدته ، ومدى سلامة تدينه •

عقيدة أبى العلاء فى الغفران :

البحث فى عقائد الناس والتنقيب فى سرائرهم أمر من أصعب الامور ، أما الحكم على الاخرين حكما حاسما فى هذا المجال فأشد صعوبة وخطرا •

وشخصية أبى العلاء شخصية من أغرب الشخصيات وأكثرها تعقيدا فى الادب العربى : فانتاجه الادبى — فى مضمونه الفكرى — حمال أضداد ، فبينما نقرأ له شعرا يتدفق بالالحاد مثل قوله :

---

(١) رسالة الغفران ١٨٥

(٢) د• صلاح فضل : تأثير الثقافة الاسلامية فى الكوميديا الالهية لدانتى ص ٧٣ • (دار المعارف) •

ان الشرائـــع ألقـــت بيننـــا احنـــا
وأودعتنـــا أفـــانين العداوات

وهل أبيحت نساء القوم عن عرض
للعـــرب الا بأحكام النبوات (١)

نقرأ له أيضا أبياتا أخرى تنطق بالايمان واليقين كقوله :

أزول وليس فى الخـــلاق شـــك
فـــلا تبكـــوا عـــلى ولا تبكـــوا

خـــذوا ســـيرى فهـــن لكم صـــلاح
وصـــلوا فى حياتكـــم وزكـــوا

ولا تصـــغوا الى أخبـــار قـــوم
يصـــدق بينهما العقل الأرك (٢)

فالنصان السابقان يحتملان تفسيرا من اثنين :

١ — أن يكون الشاعر « منفصم الشخصية » ممزق النفس والفكر، قلقا لا يستقر على حال ، فمسألة الايمان والالحاد عنده مسألة ارتباطات بمواقف نفسية انفعالية • ومن ثم يجب ألا ينظر الى عقيدته على أنها ذات أعماق وأبعاد ثابتة •

٢ — أن يكون الشاعر ملحدا ابتداء ثم تاب ، أو كان مؤمنا تقيا ، ثم انحدر الى عماية الضلال ، فنطق فى كل حال بالشعر الذى يعبر عنها •

---

(١) اللزوميات ١/١٧٥ (تحقيق أمين الخانجى) مطبعة التوفيق الادبية بمصر ١٣٤٢

(٢) السابق ٢/١٥١ (والأرك : الناقص الضعيف)

وحتى يكون صادقا أو قريبا من الصدق لابد فى مثل هـذا الموقف من معرفة أمور متعددة من أهمها : —

أ — الترتيب التاريخى لنظمهما ، ومكان كل منها زمنيا من رحلته الى بغداد التى مكث بها قرابة عامين ، وكانت سببا لاتصال أبى العـلاء بالاديان والنحل والفلسفات التى كانت تموج بها دار السلام ، وان لاقى من الكيد والمهانة والحسد والايذاء الشىء الكثير (١)

ب — ما ارتبط بالنصين من مناسبات أو مواقف ان وجدت •

جـ — علاقة أبى العلاء برجال الدين ودعاة المذاهب وأرباب النحل فى عصره • فقد تكون أبياته الملحدة لونا من الرد المسرف العنيف عـلى شيوخ عصره وبعض رجال الدين الذين أبدوا فيه رأيا سيئا ، فكانت الابيات الاولى وما دار فى فلكها نوعا من التحدى لرجـال الدين •• لا للدين نفسه •

د — ثقافته وحظه من القراءة والاطلاع ونوع مقروءاته ، حتى يمكن تبين البصمات التى تركتها هـذه الثقافات والقراءات عـلى عقله ومعتقده • وقد صدق من قال « أخبرنى ماذاتقرأ أخبرك من أنت » •

هـ — الاوضاع الاجتماعية والسياسية فى عصره ، فقـد حـال اضطراب الاحوال فى الشام خاصة وفى العالم الاسلامى دون اهتمـام الولاة بالزنادقة ، ولم يترك تقلبات الظروف لديهم وقتا لمقاومة النزعات الالحـادية •

---

(١) أنظر وفيات الاعيان لابن خلكان ١/١١٤ تحقيق د• احسان عباس • بيروت ١٩٧٨ • وانظر كذلك : تجديد ذكرى أبى العلاء لطه حسين ص ١٣٤ الطبعة الرابعة • دار المعارف ١٩٦٨

وفى عهد أبى العلاء « لم يهتم المرداسيون أمراء حلب بالشئون الدينية ، ولم يحفلوا بما شاع بين الناس من تشكك فى الدين ، وارتياب فى العقائد .. ذلك الارتياب الذى شايعه حينئذ كثير من المثقفين ومن رجال الدنيا الماديين (١)

والصعوبة التى نصطدم بها فى لزوميات أبى العلاء تواجهنا — وان كان على مستوى أهدأ وأخفى — فى رسالة الغفران التى كتبها أبو العلاء بعد عودته المنكوسة من بغداد بأكثر من عشرين سنة ، فقد عاد الى بغداد سنة ٤٠٠ هـ ، وكتب رسالة الغفران سنة ٤٢٤ هـ (٢)ومعنى ذلك أنه كتبها وهو فى قمة نضوجه الفكرى والادبى من ناحية ، وبعد ممارسة طويلة للحياة والموجودات من ناحية أخرى ، فقد كان على عتبة العقد السابع من عمره آنذاك .

نواجه فى الرسالة نصوصا تنطق بالايمان بالله وقدرته وعظمته فىخلقة،مع الاستشهاد بآيات متعددة من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريعة مما يدل بظاهره على سلامة عقيدة أبى العلاء وقوة ايمانه . (٣)

ولكن الرسالة غاصة بكثير من النصوص والوقائع التى تصطدم بالعقيدة الدينية وتسخر بكثير من المأثورات الاسلامية . ومن ذلك على سبيل التمثيل :

١ — يحمل ابن القارح كتاب التوبة أو (صك الغفران) ، ولكنه

---

(١) حامد عبد القادر : فلسفة أبى العلاء مستقاة من شعره ص ١٢٧ (لجنة البيان العربى . القاهرة ١٩٥٠) .

(٢) أنظر : زكى مبارك : النثر الفنى فى القرن الرابع ١/٢٦٠ (مطبعة السعادة بمصر ١٩٣٤ .

(٣) أنظر رسالة الغفران ص ١٤١ ، ١٥٣ ، ١٦٩ ، ١٧١ ، ١٧٨

يلبث فى الموقف أمدا طويلا حيث الحر والظمأ ، فيحاول أن يرشو سدنة الجنة ، ومنهم رضوان ، بقصائد مدح دون جدوى •

وينشغل ابن القارح عن كتاب التوبة فيفقد منه ، فيستجير بعلى ابن أبى طالب الذى يطلب منه شاهدا على التوبة فيستشهد بقاض حلبى يشهد له •

ولكن ابن القارح يحرص على دخول الجنة قبل الحساب فيستعمل الحيلة حتى يخلص الى فاطمة الزهراء بنت محمد — عليه السلام — فيناله كرمها ويتبعها ، وكان عليه أن يعبر الصراط ، ولكنه كان يتساقط يمينا وشمالا ، فتأمر فاطمة جارية من جواريها أن تجيزه (تساعده) ،وحملته الجارية الى باب الجنة ، ووهبته فاطمة الجارية لتخدمه فى الجنان •

يقول ابن القارح « فلما صرت الى باب الجنة قال لى رضوان « هل معك من جواز ؟ فقلت « لا » فقال « لا سبيل لك الى الدخول الا به ، فبعلت بالأمر ، (١) ، وعلى باب الجنة شجرة صفصاف ، فقلت « أعطنى ورقة من هذه الصفصافة حتى أرجع الى الموقف فآخذ عليها جوازا » فقال : « لا أخرج شيئا من الجنة الا باذن من العلى الاعلى تقدس وتبارك » ••• والتفت ابراهيم — صلى الله عليه — (ابن النبى عليه السلام) — •• فجذبنى جذبه حصلنى بها فى الجنة » • (٢)

والمشهد — كما هو واضح — شديد التهكم على القيم والمبادىء الاسلامية ، فهى لا تعرف « صكوك الغفران » و « كتب التوبة » ودخول الجنة « بالوسائط » • انما معيار التفضيل هو العمل والصلاح والتقوى « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » ، كما أن هذا المشهد الذى عرضنا بعض

---

(١) أى أصابتنى الحيرة والعجز

(٢) رسالة الغفران ٢٦٢

خطوطه الرئيسية — فيه استهانة بالملائكة وتشويه لموقف الحساب كما صورته الآيات القرآنية والاحاديث الصحاح •

٢ — أطال ابن القارح فى سؤال أهل النار والتحدث اليهم ، فيغضب ابليس — الذى كان يعذب فى النار — غضبا شديدا ، ويقول لزبانية النار — وهم ملائكة — « ما رأيت أعجز منكم اخوان مالك •• فيقولون « كيف زعمت ذلك يا أبا مرة ؟ » فيقول « ألا تسمعون هذا المتكلم بما لا يعنيه ؟ قدشغلكم وشغل غيركم ، فلو أن فيكم صاحب نحيزة قوية لوثب وثبة حتى يلحق به فيجذبه الى سقر » (١)

وهذا اصرار على الشر يستحق أن يضحك منه ، اذ ما أبعد ما ينبغى أن يكون الاغواء من المعذب الذى يضطرب فى الاغلال والسلاسل ، وتأخذه مقامع الحديد فى أيدى الزبانية !! وما أغرب أن يتخذ ابليس الزبانية آلة وجندا يستعين بهم على الاضرار والكيد وهم جند الله المسلط عليه لاضراره بالناس وكيده لهم (٢)

٣ — والأمثلة التى تسبح فى هذا الفلك كثيرة (٣) ، ولعل من أشدها نكرا ما جاء على لسان النابغة الجعدى مخاطبا النابغة الذبيانى « اسكت يا ضل بن ضل ، فأقسم أن دخولك الجنة من المنكرات ولكن الاقضية جرت كما شاء الله ، لحقك أن تكون فى الدرك الاسفل من النار ، ولقد صلى (أى عذب) بها من هو خير منك ، ولو جاز الغلط على رب العزة لقلت انك غلط بك ••• » (٤)

---

(١) السابق ٣٥٠
(٢) عباس العقاد : مطالعات فى الكتب والحياة ١٣٨ (الطبعة الثالثة — بيروت ١٩٦٦) •
(٣) أنظر مثلا ما جاء ص ٣٠٩ عن (الولدان المخلدين)
(٤) رسالة الغفران ٢٣٠

فمشكلة « التناقض العقدى » تواجهنا فى رسالة الغفران حيث ضمت الرسالة بين دفتيها من النصوص ما يدل على ايمان أبى العلاء وسلامة عقيدته ، وكذلك ما يصمه بالالحاد والاستهانة بالدين والقيم الاسلامية ، وهو نفس الوضع القائم فى ديوانه « لزوم ما لا يلزم » ولكن هناك ظواهر وطوابع يجب أن نضعها فى اعتبارنا ونحن نحاول أن نقترب من حكم صادق فى هذه القضية وهى :

١ — أننا يجب أن نجعل نظرتنا شمولية تتناول كل ما أنتجه أبو العلاء من شعر ونثر وله صلة بمسألة العقيدة ، ولا نكتفى بما أورده فى رسالة الغفران بشأنها •

٢ — أن نصوصه الايمانية — فى رسالة الغفران بخاصة — أصرح وأقطع وأوضح من نصوصه الالحادية التى غلفت — فى كثير من الاحيان — بالحيطة والحذر والاحتراس كاستعمال أسلوب الشرط وبناء الفعل للمجهول فى قول النابغةالجعدى للنابغة الزبيانى « **ولو** جاز الغلط على رب العزة لقلت انك **غلط** بك ••• » •

٣ — وبمعيار الكم نجد أن نصوص النوع الاول الايمانى تفوق نصوص النوع الثانى الالحادى بكثير •

٤ — وبنفس المعيار نجد أن أضخم عمل نثرى له وهو « الفصول والغايات » يتدفق « بروح رجل مؤمن مبالغ فى ايمانه يخاف ربه ويخشاه (١) والغرض الذى حدا بأبى العلاء بثه للطلبة ما وعاه صدره من نوادر العلم وغرائبه ، وقد تخير لذلك أحسن مظهر يظهره فيه وهو « تمجيد الله والمواعظ » ليكون ذلك أقرب الى النفوس ، وفيه مثوبة وقربى • أما القول بأنه قصد به مجاراة القرآن الكريم أو

---

(١) شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى النثر العربى ٢٨٢

معارضته فذلك من قول حساده ، وكيف يريد ذلك وهو يمجد الله فيه أحسن تمجيد وأروعه (١) •

٥ — أن ما وصل الينا من أعمال أبى العلاء المعرى هو أقل القليل ، وأن أضعاف أضعاف ما وصل الينا من أعماله قد أعدم أو فقد • (٢)

وفى ضوء هذه الاعتبارات كلها أو بعضها كان من الممكن أن نقطع قطعا جازما بتوبة الرجل وسلامة عقيدته ونقاء تدينه وذلك تأسيسا على كتاب ينطق كل سطر فيه بالايمان وهو (الفصول والغايات) ••• أقول كان من الممكن أن نذهب هذا المذهب لولا أن نصوص هذا الكتاب تقودنا الى حقيقة تاريخية وهى أنه ألف قبل رسالة الغفران بعشرين سنة على الاقل ، وأنه بدأ تأليفه بالشام قبل رحلته الى بغداد سنة ٣٩٨ أو ٣٩٩ هـ، وأتمه بعد عودته من بغداد الى معرة النعمان فى السنة أو السنوات الأولى من القرن الخامس (٣) •

أقول كان من الممكن أن نقطع بتوبة الرجل بهذا الكتاب الايمانى لولا أنه من المقطوع به أن أبا العلاء كتب رسالة الغفران ما بين عامى ٤٢٢ ، ٤٢٤ هـ أى بعد الفصول والغايات بأكثر من عشرين عاما •فهل نتهم أبا العلاء فى عقيدته ونرميه بالالحاد بناء على مشاهد السخرية من

---

(١) محمود الزناتى ص ٧ من تقديمه لرسالة المعرى (الفصول والغايات) الهيئة العامة للكتاب • القاهرة ١٩٧٧ •

(٢) راجع ص ٢٣١ ، ٢٣٢ من كتاب (أبو العلاء المعرى) لبنت الشاطىء (رقم ٣٨ من سلسلة أعلام العرب) •

(٣) راجع ما قاله أبو العلاء المعرى فى « الفصول والغايات » ص ١١ ، ١٢ ، ٢٨ ، ٤٨ ، ١١٥ ، ٧٣٢ • وكذلك تقديم الزناتى للرسالة ص ٨ ، ٩ •

الدين والعقيدة والمشيئة والقدر ؟ وهل نجعل حكمنا نهائيا فى هذه المسألة ؟

الواقع أننى كدت أذهب هذا المذهب ، غير أن موانع الحكم كانت أقوى من دوافعه ومنها :

١ — ما ذكرته فى مطلع حديثى عن (عقيدة أبى العلاء فى الغفران) ص ٥ من ضرورة الاحتراز والاعتداد بمعارف ووقفات طويلة ، وما ذكرته من معايير (ص ٨٨) تميل بنا الى جانب (التوقف) على الاقل•

٢ — أن « رسالة الغفران » ليست آخر أعمال أبى العلاء • فقد عاش الرجل بعدها ربع قرن كانت ولا شك أثرى فترات حياته وأحفلها بالانتاج بعد أن كثر تلاميذه وسرت شهرته فى الآفاق وقصده المريدون من مصر والعراق والشام • وربما كان من أعماله اللاحقة التى لم تصل الينا ما يعطى الكلمة النهائية فى مسألة العقيدة •

٣ — أن أغلب أعمال أبى العلاء لم تصل الينا — كما أشرنا من قبل — وهو انتاج ضخم غزير ، حتى أن بعض كتبه التى فقدت وهو كتاب « الأيك والغصون » كان يقارب مائة جزء (١) •

وهذا يجعل حكمنا — بل أى حكم — فى هذه المسألة غير حاسم وغير نهائى ، وأقرب الى دائرة الاحتمال منه الى دائرة اليقين •

شخصيات الغفران :

يلتقى القارىء فى رسالة الغفران — غير الشخصية المحورية : شخصية ابن القارح — بعشرات من الشخصيات فى الجنة وفى النار من الرجال والنساء • ويلاحظ بالنسبة للشخصيات ما يأتى :

---

(١) وفيات الأعيان ١/١٣٣

١ — أن كلها أو معظمها شخصيات تاريخية واقعية كان لها مكانها على مسرح الحياة الدنيا •

٢ — أنها شخصيات متنوعة الاديان والعقائد : فمنها المسلم ، ومنها النصرانى ، ومنها الجاهلى عابد الوثن •

٣ — أنها شخصيات مختلفة المكانة والقيمة والمركز الاجتماعى ، فمنها الشريف السرى ، ومنها الصعلوك والوضيع •

٤ — أنها جميعا تلتقى ليجمعها وجه شبه واحد هو احتراف الادب والعلم أو الفن بمفهومه الواسع : فمن هؤلاء :

العلماء والنقاد واللغويون ، مثل يونس بن حبيب الضبى،وأحمد بن يحيى ، وسيبويه ، والكسائى وأبى عبيدة والاصمعى •

ومنهم الشعراء مثل : الأعشى وزهير بن أبى سلمى وعبيد بن الابرص وعدى بن زيد ، وأبى ذؤيب الهذلى ، وحسان بن ثابت ، وتميم ابن مقبل •

ومنهم المغنون كالغريض ومعبد وابن سريج •

ومنهم المغنيات مثل : بصبص ودنانير وعنان •

فاذا ما تركنا الشخصيات السابقة التى شاء لها أبو العلاء أن ينالها الغفران فتسكن الجنة ، يلتقى ابن القارح بشخصيات متعددة لم يتسع لها الغفران لفداحة الذنوب والمآثم التى سقطت فيها فى الدنيا ، ومن هؤلاء : بشار بن برد وامرؤ القيس وعنترة العبسى وعلقمة الفحل وعمرو ابن كلثوم وطرفة بن العبد وأوس بن حجر والاخطل التغلبى والمرقش الاكبر والمرقش الاصغر والشنفرى وتأبط شرا •

ويلاحظ الدكتور صلاح فضل (١) أن توزيع هذه الشخصيات مكانيا فى الجنة أو النار يتميز بخاصية بارزة ، اذ يلقاهم المسافر فى الجنة وهم جماعات صغيرة تلتقى فى حلقات تدور كل منها حول جنس أدبى معين : فهناك علماء اللغة ، وهناك الشعراء المغنون والهجاءون وشعراء الرجز •

أما فى الجحيم فهم على العكس من ذلك يبدون له أفرادا مشتتين أو معزولين عن غيرهم ، وسواء أكان المسافر فى الجنة أو الجحيم فهو الذى يبادر من يلقاه بالسؤال عن شخص يود أن يراه ، وقد يظهر له هذا الشخص فجأة دون أن يسأل عنه ، وعادة ما يشيرون له عن مكانه فى الحالة الاولى ، أما فى الحالة الثانية فكثيرا ما لا يستطيع المسافر أن يتعرف على محدثه للوهلة الاولى لما انتاب ملامحه من التغيير ، مما يجعله مضطرا لسؤاله عن اسمه ، فاذا تبادل أطراف الحديث مع أحد من أهل الجنة أو النار كان موضوع الحوار الرئيسى دائما حول مسألة غامضة أو مثيرة فى أعمالهم الادبية والشعرية ، وليس من النادر أن نجد اشارة الى واقعة فى حياتهم الخاصة تتصل بفضائلهم أو ذنوبهم أو فقرة من أشعارهم توضح المصير الذى انتهوا اليه فى العالم الآخر •

ومن الشخصيات التى لها مكانها فى رسالة الغفران نوعان آخران من الشخصيات هما الشخصيات الغيبية والشخصيات الحيوانية :

أولا : الشخصيات الغيبية : ومنها الجن والعفاريت ، ومن هؤلاء الكافرون الذين لم يعرفوا الهدى ، ومنهم المؤمنون الذين استجابوا لدعوة الحق وكلمات الله • ولكنهم على أية حال — يتسمون بالقوة الخارقة ، والقدرة على التشكل والتصور فى صورة حيوانات مختلفة كالحيات والقطط والفئران أو شكل ظواهر طبيعية كالريح (٢) •

---

(١) تأثير الثقافة الاسلامية فى الكوميديا الالهية لدانتى ٧٣
(٢) أنظر رسالة الغفران ٢٩٣

وجن أبى العلاء أهل علم ومعرفة ، وهم أشـــعر من البشر آلاف المرات • يقول واحد من هؤلاء ، واسمه « الخيتعور » متحدثا الى ابن القارح » وهل يعرف البشر من النظم الا كما تعرف البقر من علم الهيئة ومساحة الارض ؟ وانما لهم خمسة عشر جنسا من الموزون قلما يعدوها القائلون ، وان لنا آلاف الاوزان ما سمع بها الانس •• ولقد نظمت الرجز والقصيد قبل أن يخلق الله آدم ••• » (١)

ويؤكد الجنى « أبو هدرش » ما ذهب اليه « الخيتعور » فيذكر أنه وبنى جنسه أهل فطنة وذكاء ، ولابد للواحد منهم أن يكون عارفا بجميع اللغات الانسية ، ولهم بعد ذلك لســـان لا يعـــرفه الأنيس (٢)•ويقدم الدليل على شاعريته بقصيدة سينية طويلة •

وتصوير أبى العلاء للجان لا يتعدى هذه الحدود ، وهو لا يزيد فى مجموعه على التصوير الدينى الموروث الشعبى فى سمات الجن وقدراته الجسدية والعقلية ، كما يستلهم فيه ما جـــاء فى ســـورة الجن بصـــفة خاصـــة •

ومن الشخصيات الغيبية حوريات الجنة أو الحور العين « اللوانى خلقهن الله جزاء للمتقين ، وقال فيهن : كأنهن الياقوت والمرجان » (٣) •

وثمة ملاحظة تشد النظر بالنسبة لهؤلاء الحوريات وهى أنهن غالبا لم يخلقن حوريات من البداية ولكنهن محولات من خلق آخر :

فبعضهن كان فى شكل الطير اللاقطة ثم حولتهن القدرة الخـــالقة الى خلق حور غير متساقطة (٤) •

---

(١) السابق ٢٩١ (٢) السابق ٢٩٦
(٣) السابق ٢٩٨ — ٣٠٤ (٤) السابق ٢٢٤

وبعضهن حولن عن خلق الاوز (١) .

واحدى شجرات الجوز فى الجنة « تنفض عددا لا يحصيه الا الله سبحانه ، وتنشق كل واحدة منه عن أربع جوار يرقن الرائين ممن قرب والنائين (٢) .

وتخرج حورية من احدى ثمار السفرجل أو الرمان أو التفاح وتناجى ابن القارح آملة فى وصله وقربه (٣) .

وثمة حوريتان آخريان يلتقى بهما ابن القارح فى الجنة كانتا فى الدنيا بشرا ثم أكرمهما الله بهذا الخلق الجديد فى الجنة ، وتقص الاولى حكايتها « كنت فى الدار العاجلة أعرف « بحمدونة » وأسكن فى باب العراق بحلب ، وأبى صاحب رحى ، وتزوجنى رجل يبيع السقط فطلقنى ، وكنت من أقبح نساء حلب ، فلما عرفت ذلك زهدت فى الدنيا الغرارة ، وتوفرت على العبادة ، وأكلت من مغزلى ومردنى فصيرنى ذلك الى ما ترى ... »

وتقول الاخرى « ... أنا توفيق السوداء التى كانت تخدم فى دار العلم ببغداد على زمان أبى منصور محمد بن على الخازن وكنت أخرج الكتب الى النساخ » (٤) .

ثانيا ــ الشخصيات الحيوانية : وفى الغفران عشرات من الحيوانات والطيور المختلفة الانواع والاشكال ، ولكنها فى مجموعها نوعان :

النوع الاول ــ حيوانات تاريخية : وهى الحيوانات التى كان لها وجودها الدنيوى من قبل ، كما كان لها أهميتها التاريخية لانها ارتبطت

---

(١) السابق ٢٣٤ (٢) السابق ٢٧٩
(٣) أنظر السابق ٣٧٢ (٤) السابق ٢٨٧

بأحداث ووقائع كان لها تأثيرها فى عالم البشر مثل الكلبة براقش (١) التى ضرب بها المثل فى الجناية على الاهل ، ومثل الفرس « سبل » (٢) التى كان يضرب بها المثل فى السرعة ، ومثل ذلك الاسد الذى رآه ابن القارح فيلهم الله الاسد فيحكى عن نفسه قائلا « ... أنا أفترس ما شاء الله ، فلا تأذى الفريسة بظفر ولا ناب ، ولكن تجد من اللذة كما أجد بلطف ربها العزيز ... ، أنا أسد القاصرة »(٣)التى كانت فى طريق مصر ، فلما سافر عتبة ابن أبى لهب يريد تلك الجهة ، وقال النبى — صلى الله عليه وسلم — « اللهم سلط عليه كلبا من كلابك » الهمت أن أتجوع له أياما ، وجئت وهو نائم بين الرفقة فتخللت الجماعة اليه ، وأدخلت الجنة بما فعلت (٤) .

ومن حيوانات الجنة كذلك « ذئب الأسلمى » (٥) الذى انطلق فى الجنة يقتنص أسراب ظبائها كما يشاء .

وكل هذه الحيوانات كان لها أسماؤها ووجودها الدنيوى ولو فى أسماع الناس وأذهانهم وتصوراتهم ، وان لم يروها رأى العيان .

---

(١) السابق ٥٣٢ . وبراقش كلبة كانت لقوم من العرب فأغير عليهم فهربوا وهى معهم ، فتتبع المغيرون آثارهم بنباحها ، فكان المثل « على أهلها جنت براقش » .

(٢) السابق ٥٤٧ : وسبل : اسم فرس عربى نجيب .

(٣) أسد القاصرة : سبع كان بوادى القاصرة وهى أرض كثيرة السباع بطريق الشام .

(٤) السابق ٣٠٥ (٥) السابق ٣٠٦ . والأسلمى هو أهبان بن أوس ويعرف بمكلم الذئب ، وذلك لانه زعم أن الذئب شد على غنمه فصده فخاطبه الذئب قائلا « تحول بينى وبين رزق ساقه الله الى ؟ فمن لها يوم يشغل عنها » ؟

النوع الثانى ــ حيوانات لا تاريخ لها : وان شابهت حيوانات الدنيا اسما وشكلا الى حد بعيد•ومنها ذلك الطاووس الذى يشتهيه أبو عبيدة فيأتيه مطبوخا فى صحفة من ذهب ، فاذا قضى منه الوطر انضمت عظامه بعضها الى بعض ، ثم يصير طاووسا كما بدأ (١) •

ومنها تلك الاوزة التى تمر مثل البختية،فيتمناها بعض القوم شواء ، فتتمثل على خوان من الزمرد ، فاذا قضيت منها الحاجة عادت باذن الله الى هيئة ذوات الجناح (٢) •

فهذه الحيوانات ليست كالنوع الاول ذات وجود تاريخى سابق بالاسم والمسمى فى الدنيا ، وان كان لها وجود نوعى فى دنيا البشر •

ومن هذه الحيوانات ما كان له وجود دنيوى على غير تسمية وغير شهرة ولكنه قام فى دنياه بعمل طيب فبعثه الله فى جنة النعيم ، يرتع مع قطعانها التى خلقت فى الجنة ولها ، بل ان الله يفضله عليها فيحرم صيده : يرى ابن القارح قطيعا من بقر الوحش فيوجه الى واحدة منه رمحه ليصيدها حتى ما يكون بينه وبينها الا قيد ظفر قالت « أمسك رحمك الله ، فانى لست من وحش الجنة التى أنشأها الله سبحانه ولم تكن فى الدار الزائلة ، ولكنى كنت فى محلة الغرور أرود فى بعض القفار ، فمر بى ركب مؤمنون قد كرى (أى نقص) زادهم ، فصرعونى واستعانوا بى على السفر ، فعوضنى الله ــ جلت كلمته ــ بأن أسكننى فى الخلود » (٣) •

ونلاحظ أن أبا العلاء قد أطال فى الحديث عن حوريات الجنة وجمالهن الحسى ، كما أطال القول فى متع الجنة ولذائذها وأطيابها من طعام وشراب

---

(١) السابق ٢٨١ (٢) السابق ٢٨٣
(٣) رسالة الغفران ١٩٨

وثمار وموائد ، وكلها أشياء حرمها أبو العـلاء على نفسه— فى الدنيا : فالمعروف أنه لم يتزوج ، كما أنه حرم على نفسه اللحم وما يخرج من الحيوانات كاللبن ، وما يخرج من الطيور كالبيض ، وكأنى بما كتبه فى رسالة الغفران من وصف نعيم الجنة من حوريات ومطعومات ومشروبات هو « تجسيد » لصوت العقل الباطن ، واستجابة — بعين الخيال — لنداء الفطرة الانسانية ، واشباع — على سبيل التمنى — للغرائز والنزعـات البشرية التى قد تتوارى وتتخفى فى أعماق الانسان ، ولكنها تطل برأسها فى اللحظة المواتية ، فتتجسد فى الفعل أو الكلمة أو فى الاشارة •

فأبو العلاء الذى عاش فى الدنيا محروما من هذه الخلائق والاشياء رهين المحبسين ، أو « فى الثلاثة من سجونه » كما ذكر فى شعره ، أطلق لقلمه العنان فى وصف ما حرمه على نفسه فى الدنيا بارادته ، وما حرمته منه الدنيا على الرغم منه • وكل ما فعل كان — كما ذكرنا — اشباعاً على سبيل التخيل والتمنى •

الوقائـــع والخيـــال :

تمضى الاحداث فى رســالة الغفران هينة لينة ، رتيبةمتثائبة فى أغلبها ، ليس فيها الحدث المتوهج الذى يفجأ القارىء بمستور غير متوقع ، أو خبىء لا يخطر على البال •

وكثير من هذه الوقائع بل أغلبها لا يخلو من الافتعال ، مثل ذلـك الموقف الذى يلتقى فيه ابن القارح فى أقصى الجنة بالخنساء قريبة من المطلع من النار فيقول من أنت ؟ فتقول : أنا الخنساء السلمية ، أحببت أن أنظر الى صخر ، فاطلعت ، فرأيته كالجبل الشامخ فى النارتضطرم فى رأسه ، فقال لى : لقد صح مزعمك فى ، يعنى قولى :

وان صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار (١)

---

(١) السابق ٣٠٨

فاذا كان هناك شعراء جاهليون قد غفر الله لهم ، ووقاهم عـذاب الجحيم لأبيات ذات معنى انسانى أو دينى ، وآخرون سكنوا الجحيـم لخروج شعرهم عن هذه المفاهيم فالغـريب أن ينزل صـخر يتلظى فى الجحيم « جبلا شامخا والنار تضطرم فى رأسه » تحقيقا لبيت قالته أخته الخنساء فى رثائه ، وهو النحار فى الشتاء الذى تأتم الهداة به •

والمسيرة الرتيبة المتباطئة تمضى فى هوادة مع ابن القارح ليمـر بمشاهد فى الجنة والجحيم ، وكلها متشابهة مكرورة : كخروج الحوريات من الثمار ، أو تحول الكائنات الحية اليهن ، أو مطاردة الوحوش الكاسرة للظباء وبقر الوحش وافتراسها ، أو تحول الأوز والطواويس الى أطباق شهية من اللحم••الخ•وكلها مشاهد مكرورة لغير ضرورة فنية يتطلبها المنطق الروائى فالواحد منها يغنى عن الكثير •

والخيال فى رسالة الغفران « خيال واقعى » ان صح هذا التعبير ، أو هو ــ بتعبير آخر ــ خيال تفسيرى مقصوص الجناحين ، يأتى « خادما » للمفاهيم اللغوية والآراء الادبية والنقدية والفلسفية التى كان أبو العلاء أحرص عليها من البناء القصصى الدرامى الذى يعتمد ــ أول ما يعتمد ــ على الخيال الابتكارى والتحليق والتشويق ، مما دفع العقاد الى اعتبار رسالة الغفران « أقرب الى الكتب الجغرافية وأوصاف الرحلات المشاهدة منها الى أفانين الشعر ومخترعات الخيال ، وأشبه الى التواريخ المدونة منها بالنبوءات المؤملة والغرائب المستطرفة » (١) •

ويؤكد « واقعية الخيال » أن كل الشخصيات الانسانية شخصيات تاريخية ، ليس فيها شخصـية واحدة مخترعة ، وكذلك الشخصـيات الحيوانية كلها من حيوانات الدنيا • أمـا الشخصـيات الغيبية بملامحها المختلفة فلا تتعدى فى صورتها العامة التصورات الشعبية والدينية لهذه المخلوقات •

---

(١) مطالعات فى الكتب والحياة ١١٦ الطبعة الثالثة بيروت ١٩٦٦

على أننا لا نرى تفاعلا دراميا بين الاحداث بعضها والبعض الاخر ولا بين الاحداث والشخصيات ، لان كل أولئك لم يكن من هم أبى العلاء ، ولا من الأمور التى يحرص عليها • انما كان همه الأكبر هـو « اللغة » وابراز عمق معارفه اللغوية وعلمه بغريبها ومهجورها وما تثيره من مسائل نحوية وصرفية (١) وغير ذلك مما وسم الرسالة بالجفاف الشديد كمـا سنرى فى الصفحات الآتية :

اللغـة والأداء التعبـيرى :

تغص رسالة الغفران من أولها الى آخرها بالغريب والمهجـور من الالفاظ • حتى أن مطلع الرسالة جاء مغلقا يصعب على الدارس المتخصص فهمه الا بصحبة أحد المعاجم ، ولنقرأ هذه السطور الاولى ، والمخاطب فيها — كما علمنا — هو على بن منصور الحلبى (ابن القارح) (٢) •

« قـد علـم الجبر (٣) الذى نسب اليه «جبرئيل » وهـو فى كل الخيرات سبيل ، أن فى مسكنى حماطة (٤) ، ما كانت قط أفانية (٥) ، ولا الناكزة (٦) بها غانية (٧) ، تثمر من مودة مولاى الشيخ الجليل (كبت

---

(١) وهى لازمة صحبت أبا العلاء فى رسائله بخاصة ونثره بعامة • ومن أغرق رسائله فى الغريب ومسائل اللغة (رسالة الملائكة) التى ألفها سنة ٤٣٥ حتى قدر مقدم الرسالة أنها تفوق رسالة الغفران فى هذا المجال (أنظر صفحة (ز) من تقديم محمـد سـليم الجنـدى لرسـالة الملائكة (المطبعـة التجـارية • بيروت •د•ت) •

(٢) رسالة الغفران ١٢٩ — ١٣٠

(٣) الجبر : الله • وتأتى كذلك بمعنى الملك والعبد •

(٤) يقصد بها حبة القلب وهو فى الأصل شجر •

(٥) أفانية : واحدة الأفانى وهو شجر الحماط اذا كان رطبا •

(٦) الحية (٧) مقيمة •

الله عدوه ، وأدام رواحه الى الفضل وغدوه — ما لو حملته العالية من الشجر لدنت الى الارض غصونها ، وأذيل (١) من تلك الثمرة مصونها • والحماطة ضرب من الشجر يقال لها اذا كانت رطبة أفانية ، فاذا يبست فهى حماطة • قال الشاعر :

اذا أم الوليـــد لم تطعنى حنوت لها يدى بعصا حماط
وقلت لها : عليك بنى أقيش فانك غير معجبة الشطاط (٢)

وسمة أخرى من سمات أسلوب المعرى وهى سيطرة السجع عليه ، وأغلبه متكلف غير مستساغ مثل قوله — مشيرا الى رسالة ابن القارح « وقد وصلت الرسالة التى بحرها بالحكم مسجور ، ومن قرأها مأجور ، اذ كانت تأمر بتقبل الشرع ، وتعيب من ترك أصلا الى فرع ، وغرقت فى أمواج بدعها الزاخرة ، وعجبت من اتساق عقودها الفاخرة ، ومثلها شفع ونفع ، وقرب عند الله ورفع ••• » (٣) •

ويحرص أبو العلاء من ضروب الصنعة كذلك على المزاوجةوالجناس ومنه التام كما نرى فى قوله :

« ••• هيهات هذه أباريق ، تحملهـــا أباريق ، كأنها فى الحســـن الاباريق » : فالاولى هى الاباريق المعروفة ، والثانية من قولهم : جارية ابريق اذا كانت تبرق من حسنها • قال الشاعر :

وغيداء ابريق كأن رضابها جنى النحل ممزوجا بصهباء تاجر

والثالثة من قولهم : « سيف ابريق : مأخوذ من البريق » (٤) •

---

(١) أهين (٢) الشطط : مجاوزة القدر • والشطاط : الطـــول وحســـن القوام والاستقامة فى الرمح وهـــو أيضـــا الجور والتجاوز (٣) السابق ١٣٩ (٤) السابق ١٤٤

ولعل هذا الغرام بالغريب الحوشى وضروب الصنعة هو الذى دفع بعض المحدثين الى اعتبار رسالة الغفران من قبيل المقامات ، كمقامات الحريرى وبديع الزمان الهمذانى (١) •

ولكننا مع تسليمنا بأن رسالة الغفران مع فن المقامات فى هاتين السمتين الاسلوبتين : غرابة الالفاظ والصنعة البديعة ، **فانها تختلف عن هذا الفن فى عدة وجوه هى : —**

١ — أنها أكثر من المقامات تحررا وأقل منها التزاما للبديع وخصوصا فى الحوار الذى يدور بين ابن القارح من ناحية والشعراء والادباء واللغويين والخلائق الاخرى فى الجنة والجحيم من ناحية أخرى •

٢ — أن أغلب شخصياتها تاريخية واقعية • أما شخصيات المقامات : شخصية البطل ، وشخصية الراوية والشخصيات الثانوية كذلك فكلها مخترعة •

٣ — أن موضوع الغفران « رحلة فى العالم الاخر : نعيمه وجحيمه» •أما موضوعات المقامات وأحداثها فتجرى على الارض ، وتدور فى دنيا الناس •

٤ — على أن هناك فارقا « كميا » وهو أن رسالة الغفران أكثر امتدادا وأطول نفسا من المقامة •

ويطلق المعرى صاحبه ابن القارح ليجرى حوارا يستغرق أغلب هذه الرحلة الغيبية ، يدور هذا الحوار — كما ذكرنا من قبل — مع أصحاب

---

(١) أنظر : أحمد حسن الزيات « فى أصول الادب » ٣٧٠ (ط ٣ مطبعة الرسالة ١٩٥٢) •

الجنة وأصحاب النار من الملائكة والجن والشعراء والادباء واللغويين والحيوانات ••• الخ •

والحوار فى رسالة الغفران لا يقوم بالمهمة التى يؤديها فى العمل القصصى الدرامى فى الاشتراك مع العناصر الفنية الاخرى فى رسم الشخصيات وابراز أعماقها الدفينة وأحاسيسها الكامنة ، وخلق التلاحم والاندماج بين الشخصيات والاحداث ، وتطوير الاحداث وانمائها خلوصا الى النهاية أو الحل (١) •

وانما يأتى الحوار — وأغلبه مرتبط بمواقف وأحداث مفتعلة — ليخدم الهدف الاساسى لابى العلاء وهو ابراز قدرته الفائقة فى علمه باللغة والشعر والتاريخ ، وليكون نافذة يطل منها أبو العلاء بآرائه الدينية والفلسفية والنقدية • فنحن نعلم — على سبيل التمثيل أن أبا العلاء خرج صفر اليدين منكوبا منكوسا من رحلته الادبية الى بغداد ، حيث خسر المال والكرامة والجهد ، ولازمته « عقدة الادب الخاسر » وضيق رزق الاديب ، لازمته هذه العقدة فى محبسه أو محبسيه بمعرة النعمان لتجد متنفسها فى هذا الحوار الذى يدور بين ابن القارح وابليس :

يقول ابليس الذى كان فى النار يضطرب فى الاغلال والسلاسل ومقامع الحديد : من الرجل ؟

فيقول ابن القارح : أنا فلان بن فلان من أهل حلب • كانت صناعتى الادب ، أتقرب به الى الملوك » •

---

(١) أنظر : محمد يوسف نجم : فن القصة (١١٧ — ١١٨) الطبعة الثالثة بيروت ١٩٥٩ وانظر : جابر قميحة : الشعر القصصى عند مطران ٢٩٨ (أطروحة مخطوطة) •

فيقول ابليس « بئس الصناعة ، انها تهب غفة (١) من العيش ، لا يتسع بها العيال ، وانها لمزلة بالقدم ، وكم أهلكت مثلك !! فهنيئا لك اذ نجـوت ... » (٢) .

وقد كان أبو العلاء يتهم أبا تمام فى دينه ، وهو فى رسالته يجرى حوارا بين عنترة وابن القارح يضمنه أبو العلاء رأيه فى شـعر أبى تمام :

يقول عنترة (بعد أن أنشده ابن القارح بيتين من شعر حبيب بن أوس : أبى تمام) : وما حبيبكم هذا ؟

فيجيب ابن القارح : شاعر ظهر فى الاسلام (وينشـده شيئا من نظمه) .

فيقول عنترة : أمـا الاصل فعـربى ، وأما الفرع فنطق به غبى ، وليس هذا المذهب على ما تعرف قبائل العرب .

فيقول ابن القارح (وهو ضاحك مستبشر) انما ينكر عليه المستعار ، وانما جاءت العـارية فى أشـعار كثير من المتقدمين ، الا أنها لا تجتمع كاجتماعها فيما نظمه حبيب بن أوس (٣) .

فأبو تمام — وان كانت لغته العربية — شاعر غبى أفسد الشـعر باغراقه فى الخيال أو العارية . والمستعار فى ذاته لا يعاب ، انما يعاب الاكثار منه والاغراق فيه .

---

(١) غفة : أى بلغة وقليلا من العيش .
(٢) رسالة الغفران ٣٠٩ .
(٣) السابق ٣٢٤ .

وتأمل السؤال بـ (ما) لا بـ (من) عن (هذا الحبيب) • وتأمل كذلك ضحك ابن القارح — وان شئت فقل المعرى — واستبشاره باتهام أبى تمام بالغباء والخروج على « المذهب العربى » فى الاقتصاد فى الخيال •

واذا ما عرضت مسألة لغوية أو نحوية — أو بتعبير أدق : اذا ما شاء أبو العلاء أن يفتعل لها موقفا يثيرها — استقصاها الى أقصى حدود الاستقصاء ، ملقيا بكل ثقله فى مضمارها ، طارحا ما يمكن أن يكون اعتراضا على ما أبدى من أحكام ، فنواجه فى المسألة الواحدة — عن طريق الحوار غالبا — حكما ثم نقدا لهذا الحكم ثم ردا على هذا النقد ، ثم نقضا للرد •• الخ بطريقة استطرادية جافة • (١)

لكن هناك ميزة أسلوبية تحسب لأبى العلاء فى رسالة الغفران ، وهى سمة أعتقد أن واحدا ممن كتب عن أبى العلاء لم يقف عندها ، أو لم يعطها حقها ، وهى سمة تبرز مظهرا آخر من مظاهر قدرته اللغوية ، وأعنى بها عشرات الجمل الاعتراضية الكثيرة المتنوعة التى وردت فى تضاعيف الرسالة عند الدعاء لابن القارح اذا أراد الكلام أو جاء ذكره على سبيل الرواية • ومن أمثلتها :

١ — وقد علم — أدام الله جمال البراعة بسلامته ••• — ١٣٢ —

٢ — ثم انه — أدام الله تمكينه — يخطر له الحديث ••• — ١٧٥ —

٣ — وهو — أكمل الله زينة المحافل بحضوره — يعرف الاقوال ••• — ١٧٩ —

---

(١) أنظر مثلا ما ورد فى كلمة « سبد » التى جاءت فى أبيات لبشار : رسالة الغفران ٣١١ — ٣١٣

٤ — فيقول — زاد الله فى أنفاسه — انى سألت ربى••• — ٢٠١ —

٥ — فيقول — لازال قوله عاليا — يا أبا سوادة ••• — ٢٠٣ —

٦ — ويتلو — جمل الله ببقائه — هذه الآية ••• — ٢٠٤ —

٧ — فيقول — أرغم الله شانئه — ننشد •• — ٢٠٥ —

٨ — فيقول — أعظم الله حطه فى الثواب ••• — ٢١٧ —

٩ — فيقول — رفع الله صوته — ••• — ٢١٩ —

١٠ — ويخطر له — جعل الله الاحسان اليه مربوبا ،
ووده فى الأفئدة مشبوبا — ••• — ٢٢٤ —

١١ — فيقول — لازال مقولا للخير — ••• — ٢٤٠ —

١٢ — ويبدو له — أيد الله منجده بالتأييد — أن يصنع ••• — ٢٦٨ —

١٣ — فيقترح — أمضى القادر له اقتراحه — ••• — ٢٦٨ —

١٤ — ويجس فى صدره — عمره الله بالسرور — أرجاء تدور — ٢٧٠ —

١٤ — ويجس فى صدره — عمره الله بالسرور —
أرجاء تدور ••• — ٢٧٠ —

١٥ — ويقول — لافتىء ناطقا بالصواب — ••• — ٢٧٢ —

١٦ — ويعرض له — أدام الله الجمال ببقائه — ••• — ٢٧٥ —

١٧ — ويقول — لازال منطقا بالسدد — ••• — ٢٧٩ —

١٨ — ويخلو — لا أخلاه الله من الاحسان — بحوريتين — ٢٨٤ —

١٩ — فيهم الشيخ — لازالت همته عالية — •• — ٢٩٢ —

مخطـوطة)

٢٠ ـ فيذهب ـ عرفه الله الغبطة فى كل سبيل ـ ... — ٣٠٧ —

٢١ ـ فيقول ـ أحل اللـه الهلكـة بمبغضه ـ ... — ٣٤٧ —

٢٤ ـ فاذا رأى ـ لازال خصـمه مغلبـا ـ ... — ٣٧٥ —

٢٥ ـ ويذكر ـ أذكـره اللـه بالصـالحات ـ ... — ٣٧٧ —

والناظر هذه الجمل يبدهه بالنسبة لها وصفان :

الاول : تنوعها وتلونها : فالمعرى لم يكرر واحدة منها فى الرسالة كلها الافى القليل النادر .

الثانى : مراعاة أبى العلاء فى استعماله كل جملة منها طبيعة الموقف أو الحدث . أى « مراعاة مقتضى الحال » بين الجملة الاعتراضية والمقام الذى ينفسح للقول أو الرواية بحيث لا يغنى غيرها عنها فىمقامها الذى وضعت فيه :

فابن القارح يتمنى أن يرى سحابا كالسحاب الذى وصفه عبيد بن الابرص فى شعره ، فينشىء الله ـ تعالت آلاؤه ـ سحابة كأحسن مـا يكون السحاب ، من نظر اليها شهد أنه لم ير قط شيئا أحسن منهامحلاة بالبرق فى وسطها وأطرافها ، تمطر بماء ورد الجنة من طل وطش ، وتنثر حصى الكافور كأنه صغار البرد ... « (١) .

فالمشهد هنا بصرى منظور ، يتدفق بالجمـال ويشـد النظر ، اذا

---

(١) رسالة الغفران ٢٧٥

يصدر أبو العلاء بجملة دعائية تناسبه « ويعرض له — أدام الله الجمال ببقائه — الشوق الى نظر سحاب ••• » (١) •

ومشهد آخر يؤيد ما ذهبنا اليه من قدرة أبى العلاء على أختيار الجملة الاعتراضية المناسبة للموقف والسياق :

يقول الأخطل التغلبى : انى جررت الذراع ، ولقيت الدارع ، وهجرت الآبدة ، ورجوت أن تدعى النفس العابدة ، ولكن أبت الاقضية »

فالصورة هنا صورة رجل آثم يعتد بنفسه ، ويتهم القضاء والقدر بافساده ، ويلقى عليه مسئولية خطله • وهو منطق فاسد ، يناقض ما عليه ابن القارح من تقوى وصلاح وحكمة ، لذا كان الدعاء بالموت على مبغضه هو أنسب الدعاء : « فيقول — أحل الله الهلكة بمبغضه — أخطأت فى أمرين ••• » (٢) •

وتطرد هذه السمة فى كل الجمل الاعتراضية أو أغلبها ، وهى — بلا شك — ميزة فنية تسجل لأبى العلاء فى رسالته •

وبعد هذه المسيرة التى صاحبنا فيها « رسالة الغفران » فى أهم عناصرها الفكرية والفنية نطرح السؤال التقليدى المعهود : الى أى جنس أدبى يمكن أن تنتسب هذه الرسالة ؟•

والحقيقة أن الذين يحاولون نسبتها الى جنس أدبى واحد محدد يسرفون على أنفسهم أشد الاسراف وخاصة اذا ما استعانوا فى هذا المجال بمعايير النقد الحديثة : فهى ليست مقامة ، وقد بينا وجوه الخلاف الكثيرة بينها وبين هذا الفن وان التقت معه فى بعض وجوه الشبه •

---

(١) السابق : نفس الصفحة •
(٢) السابق ٣٤٧ •

وهى ليست ملحمة طبيعية كالالياذة والأوديسية،ولا ملحمة صناعية مثل المهابهارتا والشاهنامة والفردوس المفقود والانيادة والكوميديا الالهية وان تأثرت الأخيرة بها فى بعض الاراء (١) •

كما أنه من الصعب اعتبارها رواية لافتقادها أهم العناصر الروائية •

والذين يصرون على أنها ملحمة متكاملة العناصر مدفوعون — من وجهة نظرى بدوافع قومية أكثر منها فنية موضوعية • كما أرى أن الذين يجردونها من القيم الادبية والفنية تجريدا تاما لا يقلون اسرافا عن الفريق الاول •

والخلاصة أننا يجب ألا نصر على الوقوع فى الحرج بوضع رسالة الغفران فى قبيل الجنس الأدبى الواحد• لانها — من وجهة نظرى — أخذت من كل الاجناس بطرف • لذلك أرى أن أدق ما نصفه بها أنها « مطولة نثرية قصصية معجمية » وأكبر قيمها لا ترجع الى فنية درامية ولكن الى معجميتها وبراعة الاستعمال اللفظى والتركيبى القديم بالاضافة الى المواقف النقدية مما سبق من الشواهد والاشارات •

---

(١) راجع فى تعريف هذه الأنواع : فى أصول الأدب للزيات (٣٥٠ — ٣٦٥) •

المراجـــع

١ ــ أبو العلاء المعرى : بنت الشـــاطىء : د• عائشـــة عبد الرحمن
٢ ــ الشعر القصصى عند خليل مطران : د• جابر قميحة (أطروحة سلسلة أعلام العرب رقم ٣٨ ــ القاهرة
٣ ــ الفصول والغايات فى تمجيد الله والمواعظ : أبو العـــلاء المعرى الطبعة التاسعة • دار المعارف • القاهرة ١٩٨٠ •
٤ ــ الفـــن ومذاهبـــه فى النثـــر العـــربى : د• شـــوقى ضـــيف تحقيق محمود حسن الزنانى • الهيئة العامة للكتاب ــ القاهرة ١٩٧٧ •

مصر ١٩٣٤ •
تحقيق أمين الخانجى • مطبعة التوفيق بمصر ١٣٤٢
٥ ــ اللزوميـــات (لزوم مـــا لا يلـــزم) أبـــو العـــلاء المعـــرى

٦ ــ النثر الفنى فى القرن الرابع : د• زكى مبـــارك : مطبعة السعادة

٧ ــ تأثير الثقافة الاسلامية فى الكوميديا الالهية لدانتى :
د• صلاح فضل • دار المعارف ١٩٨٠ •

٨ ــ تجديد ذكرى أبى العـــلاء : د• طه حســـين • الطبعة الرابعة ، دار المعارف ١٩٦٨ •

٩ ــ رسالة الغفران : أبو العلاء المعرى • تحقيق بنت الشاطىء• ط ٦ دار المعارف ١٩٧٧ •

٢٢ ــ فيقول ــ أجزل الله عطاءه من الغفران ــ ••• ــ ٣٥٩ ــ

٢٣ ــ فيقول ــ وفر الله قســـمه من الثواب ــ ••• ــ ٣٦٠ ــ

١٠ ــ رسالة الملائكة : أبو العلاء المعرى • المطبعة التجارية • بيروت د•ت •

١١ ــ فلسفة أبى العلاء مستقاة من شعره : حامد عبد القادر • لجنة البيان العربى • القاهرة ١٩٥٠ •

١٢ ــ فن القصة : محمد يوسف نجم • الطبعة الثالثة • بيروت ١٩٥٩

١٣ ــ فى أصول الادب : أحمد حسن الزيات • مطبعة الرسالة • القاهرة ١٩٥٢ •

١٤ ــ مطالعات فى الكتب والحياة : عباس العقاد • الطبعة الثالثة بيروت ١٩٦٦ •

١٥ ــ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : ابن خلكان تحقيق : د• احسان عباس • بيروت ١٩٧٨ •